مركز الحوار السوري
Syrian Dialogue Center

الشمال السوري في ضوء الأحداث الأخيرة

التطورات ـ التداعيات والمآلات المحتملة

ورقة تحليلية على إثر انعقاد ندوة حوارية أقامها مركز الحوار السوري حملت عنوان:
"سيناريوهات الشمال السوري في ضوء التطورات الأخيرة: الآثار السياسية وآليات التعامل"

http://sydialogue.org/news/24

الأربعاء ١٩ جمادى الآخرة ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨/٣/٨ م

جدول المحتويات

مقدمة: ٢

أولاً- جولة جديدة من الصراع الداخلي تعصف بإدلب وريف حلب الغربي: ٢

أسباب الاقتتال: ٢

تطورات الوضع الميداني : ٣

مواقف أهم الفصائل ومساعي الهدنة: ٤

ثانياً- التداعيات المحتملة والمآلات القادمة: ٥

الاستنزاف واستفادة الآخرين: ٥

الآثار الاجتماعية: ٦

المآلات القادمة وملامح المرحلة المقبلة: ٦

صراع متجدد: ٧

عودة "تنظيم القاعدة": ٧

طموحات الخصوم: ٨

الحالة السياسية: ٨

خاتمة وتوصيات: ٨

مقدمة:

على غرار ما جرى في السنوات الماضية في فترات هدوء الجبهات مع قوات النظام، شهدت مناطق محافظة إدلب وريف حلب الغربي جولة جديدة من المعارك الداخلية بين فصائل الثورة من جهة وبين ما جرت به العادة أن تكون "النصرة"[1] طرفها الآخر.

وقد أدت جملة من الأسباب إلى اندلاع القتال بين "هيئة تحرير الشام" من جهة و "جبهة تحرير سوريا" المشكلة حديثاً[2] من جهة أخرى، في الوقت الذي تشهد فيه غوطة دمشق الشرقية حملة همجية وعنيفة من قبل قوات النظام وحلفائه روسيا وإيران تنذر بتداعيات إنسانية غير مسبوقة، وفي ظل استمرار العملية العسكرية التركية في منطقة عفرين ضد الوحدات الكردية بمشاركة فصائل من الجيش السوري الحر.

وتختلف تقييمات المتابعين لما يجري في إدلب وإن كان ثمة اتفاق على وجود نوايا قديمة متجددة لدى "الهيئة" في الهيمنة على باقي فصائل الثورة أو القضاء عليها، حيث يرى البعض أن ما يجري يشكل صحوة فصائلية هامة في وجه هيمنة "هيئة تحرير الشام-هتش" في إدلب وما نتج عنها من آثار سلبية على عموم الثورة والمجتمع، في حين يرى البعض الآخر أن الاقتتال الدائر يستنزف القوى المختلفة ويضعف إمكانياتها في الوقت الذي تتعرض فيه جميع المناطق المحررة لتهديدات مستمرة من روسيا والنظام، مما يستوجب "رص الصفوف" والابتعاد عن "الخلافات الداخلية" وفتح جبهات القتال مع قوات النظام حصراً.

ونظراً لأهمية ما يجري وتوقيته، تسعى الورقة لقراءة التطورات الأخيرة وآثارها المحتملة، حيث تتناول الورقة في جزئها الأول تطورات المشهد الميداني، والأسباب المباشرة وغير المباشرة لما جرى، مع قراءة مواقف أبرز الفاعلين. أما في الجزء الثاني تتناول التداعيات المحتملة للأحداث الراهنة وأثرها على مستقبل المنطقة ومحاولة بيان المآلات القادمة، وتختتم ببعض التوصيات.

أولاً- جولة جديدة من الصراع الداخلي تعصف بإدلب وريف حلب الغربي:

أسباب الاقتتال:

شكّلت سيطرة قوات النظام على مئات القرى والبلدات في إدلب ومحيطها بداية العام الحالي حالة من الاحتقان الداخلي الشعبي والفصائلي ضد "هيئة تحرير الشام"، باعتبار أنها تراجعت بشكل كبير ودون مبررات عسكرية من تلك المناطق التي كانت تحت سيطرتها أمام تقدم قوات النظام.

من جهتها دأبت "هيئة تحرير الشام" ومن قبلها "فتح الشام" و"النصرة" على ابتلاع الفصائل الثورية أو إقصائها، حيث تسعى إلى تمكين سيطرتها الداخلية في مناطق وجودها أمام القوى الأخرى، فأنهت وجود عشرات الفصائل في إدلب ومحيطها كما حصل مع "جبهة ثوار

---

[1] كثيراً ما يتم استخدام مصطلح " النصرة" بدلاً من "هيئة تحرير الشام" ومن قبلها "فتح الشام"، باعتبار أن النصرة تشكل العمود الفقري لكلا التنظيمين، كما يعتبر أبو محمد الجولاني مؤسس جبهة النصرة والقائد الحالي للهيئة، صاحب الكلمة العليا في التنظيم.

[2] في الثامن عشر من شباط/فبراير الماضي وقبل يومين من بدء اندلاع المعارك بين الفصيلين، تم الإعلان عن تشكيل ما سمي "جبهة تحرير سوريا" من اتحاد كل من "حركة أحرار الشام" و"حركة نور الدين الزنكي"، وجاء في بيان الإعلان عن تشكيل الجبهة بأنها "لن تتهاون في الوقوف في وجه كل من فقد بوصلة بندقيته لتكون أداة تستخدمها القوى الخارجية لتصفية الثورة"، في إشارة إلى تحشيد "هيئة تحرير الشام" للهجوم على مواقع حركة "الزنكي" والذي تزامن مع إعلان التشكيل، بعيد مقتل "أبو أيمن المصري" القائد والشرعي في الهيئة بيومين أثناء مروره على أحد حواجز حركة نور الدين الزنكي"، للمزيد انظر قناة حركة أحرار الشام على التيلغرام.

سوريا" و"حركة حزم"[٣]، ونجحت في إضعاف غيرها كحركة " أحرار الشام" الصيف الماضي، قبل أن تصطدم مع حركة "نور الدين الزنكي" في تشرين الثاني/نوفمبر الماضي أثناء محاولة "هتش" السيطرة على مناطق في ريف حلب الغربي. وعادة ما تتخذ هتش مع كل عملية تقوم بها حجة تقوم من خلالها بالتجييش إعلامياً وتحشد عسكرياً قبل أن تبدأ بالعمليات على الأرض[٤].

أما بالنسبة للفصائل الثورية، فهي تدرك أنها تحت تهديد "هتش" في أي وقت، وأن حوادثاً عابرة فقط هو ما يفصل الأخيرة عن مواصلة عملياتها في إخضاع الفصائل، لذا ارتأت العمل معاً لكيلا يتم القضاء عليها تباعاً.

وشكّل مقتل القيادي والشرعي في الهيئة "أبو أيمن المصري" على أحد حواجز حركة "نور الدين الزنكي" في ريف حلب الغربي في ١٦ من شهر شباط/فبراير الماضي الشرارة التي أشعلت الجولة الحالية من الصراع، ومع اتهام هتش للزنكي بتعمد الحادثة ورفضها مساعي التحكيم، تبين أن الأمور ذاهبة للتصعيد كما جرت عليه العادة في حوادث سابقة تمسها، واستدراكاً للتحشيد الإعلامي والعسكري الذي بدأته مباشرة بعيد مقتل "المصري"، تم الإعلان عن تأسيس "جبهة تحرير سوريا" برئاسة قائد "أحرار الشام" حسن صوفان كخطوة استباقية لتحمي الفصائل نفسها من استفراد "النصرة" بها.

تطورات الوضع الميداني:

بعد مقتل " المصري" وتشكيل "جبهة تحرير سوريا"، بدأت هتش خلال الأيام التالية لمقتل "المصري" حملة اعتقالات طالت عناصر من الجبهة الجديدة على حواجزها المختلفة في المنطقة، ليبدأ بعدها التشكيل الجديد "جبهة تحرير سوريا" تحركاً واسعاً على مقار ومعسكرات هتش في ريف حلب الغربي، حيث تمكن من تحقيق تقدم ملحوظ على حساب هتش التي شهدت تصدعات كبيرة في صفوفها في الآونة الأخيرة من انشقاقات واعتزال والتزام "للحياد"[٥]، فسيطر التشكيل على "الفوج ٤٦ وكفرناصح ودارة عزة" وبلدات أخرى في ريف حلب، وامتدت سيطرته إلى "قاح وأطمة وكفرولسين"، ومن ثم "معرة مصرين وحزانو ورام حمدان وتفتناز" بريف ادلب الشمالي، وصولاً إلى "كفرنبل ومعرة النعمان وأريحا" وبلدات ريف ادلب الجنوبي، مع استمرار الصدام في بلدات عدة في جبل الزاوية بمساندة من "صقور الشام" للجبهة[٦].

ويمكن تلخيص أهم الأسباب التي أدت لتراجع "هيئة تحرير الشام" أمام الفصائل في الأيام الأولى:

- امتداد الجبهات بشكل واسع وغير مسبوق، حيث عمدت هتش في المرات السابقة إلى حصر معاركها مع الفصائل في جبهات محددة.
- جاءت المبادرة بالهجوم هذه المرة من الفصائل الثورية رغم أن هتش كانت تحشد عسكرياً وإعلامياً، وهذا ما لم تألفه سابقاً.
- الانتفاضة الشعبية ضد هتش في الكثير من المناطق والتي أعاقت تحركاتها في مناطق المواجهة، حيث شهدت العديد من مدن وقرى احتجاجات شعبية ضد وجودها وممارسات عناصرها خلال فترات الاقتتال، كما في "سراقب" و"معرة النعمان"، كما هاجم

---

[٣] قضت النصرة فعلياً على "جبهة ثوار سوريا" في بداية تشرين الثاني /نوفمبر ٢٠١٤ بعد السيطرة على معاقل الجبهة الرئيسة في جبل الزاوية، وتم القضاء على حزم في آذار من عام ٢٠١٥ وانضواء ما بقي من عناصرها في الجبهة الشامية. وثم القضاء على فصيل جيش المجاهدين بداية ٢٠١٦. وفي صيف ٢٠١٧ شنت "هيئة تحرير الشام" هجوماً على حركة أحرار الشام أجبرت الأخيرة على الانسحاب من مناطق واسعة في ادلب وريفها.

[٤] مثال ذلك: قامت النصرة بحملتها الأولى ضد مواقع جبهة ثوار سوريا في صيف ٢٠١٤ على الحدود التركية بحجة "مكافحة الفساد والتهريب" واستمرت العمليات الأمنية حتى القضاء على الجبهة بعد شهرين من ذلك، كما شنت النصرة ومنذ صيف العام ٢٠١٤ حملة اعلامية تستهدف حركة حزم وارتباطها ببرنامج التدريب والدعم العسكري الأمريكي كتمهيد لهجماتها لاحقاً على الفصيل، ودائماً ما كانت تشكل أحداث الاعتقال المتبادل والاغتيالات شرارة بدء المواجهات الميدانية، ففي نهاية كانون الثاني/يناير ٢٠١٥ وقبل بدء حملتها على حزم، أصدرت النصرة بياناً اتهمت فيه الأخيرة باعتقال اثنين من عناصرها، وادعت أن جهود الافراج عنهما قد فشلت ما بررت به هجومها حينها، و كذلك الاقتتال الحالي بين هيئة تحرير الشام وجبهة تحرير سوريا و الذي كانت شرارته مقتل الشرعي في هيئة تحرير الشام أبو أيمن المصري.

[٥] شهدت هتش نهاية الصيف الماضي انشقاق ٣ فصائل هامة وهي نور الدين الزنكي وجيش الأحرار وكتائب ابن تيمية بالإضافة لاستقالة عدد من الشخصيات القيادية والشرعية على رأسها المحيسني والعلياني الذين التزما "الحياد" فيما يجري، وفي يناير الماضي انشق آلاف العناصر عن الهيئة كفصائل جند الملاحم وجيش البادية وجيش الساحل والتحقوا بتنظيم القاعدة، كما أعلنت عدد من الفصائل مؤخراً تركها لهتش وانضمامها لجيش الأحرار أهمها "أسود الإسلام" في قرية "زردنا" وكتيبة "البتار في تفتناز" العاملة في قطاع البادية وغيرها.

[٦] "الصراع على إدلب"، بلدي نيوز، ١ آذار/مارس٢٠١٨، https://goo.gl/CzhRKG .

المتظاهرون حواجز هتش في بلدة "كفرنبل" وأحرقوها بعد هروب العناصر منها، كما هاجموا "إدارة القاطع الجنوبي" لمخيمات "أطمة" ودمروا محتواه، وعطلوا الطرقات المؤدية إلى جنوبي إدلب في قرية "المسطومة" وقطعوها بالحجارة كي لا تعبر الأرتال العسكرية منها، وطردوا عناصرها من مؤسسة المياه وفرن منطقة "أطمة"[٧].

- عوامل ضعف ذاتية أصابت هتش وأهمها الاستنزاف الذي أصابها في الشهور الماضية بعد معارك ريف حماه الشرقي ضد "داعش" والنظام، بالإضافة لانشقاق القطاعات بين من التزم الحياد وبين من اعتزل أو رفض القتال خصوصاً موقف عناصر وفصائل "تنظيم القاعدة"، وتراجع مصداقيتها أمام البيئة المحلية نتيجة الخسارات المتكررة وغير المبررة أمام قوات النظام في المعارك السابقة، ما ساهم بضرب مصداقيتها وتشكيل حالة غضب واحتقان شعبي.

وبعد تسجيلها لانسحابات متعددة من مناطق واسعة، استطاعت هتش استيعاب الصدمة الأولى دون خسائر كبيرة، وبخبرة وتكتيكات عسكرية تعتمد على تجميع القوة وتمكينها في المركز وبدء التمدد نحو الأطراف، استعادت زمام المبادرة مع بدايات مارس/ آذار وسيطرت من جديد على العديد من المناطق التي خسرتها في البداية.

فقد عززت تواجد قواتها في مدينة إدلب وبلدات الريف الغربي وصولاً لحارم وسلقين وجسر الشغور مع امتدادها للساحل بما في ذلك المناطق المحيطة بمعبر باب الهوى، وبذلك يكون قطاع الحدود كاملاً تحت سيطرتها، ومن "جسر الشغور" إلى "بسنقول" وأطراف سهل الغاب المحاذي للقسم الغربي من جبل الزاوية، وصولاً لقطاع ريف حماة المتصل، لتكون "تحرير الشام" بذلك قد تملّكت السيطرة على نصف المحافظة، وما تبقى هو ساحة صراع مع الطرف الآخر بين كر وفر وتبادل للسيطرة[٨].

ومما ساعد هتش على التقدم أيضاً أنها سحبت المبادرة من الفصائل بعد أن تأخرت الأخيرة في وصل المناطق ببعضها والسيطرة على طرق الإمداد، بالإضافة لسياسة اتفاقيات التحييد التي اتبعتها هتش في مدن وبلدات لا تملك فيها ثقلاً عسكرياً بعد تدخل الفعاليات المدنية، وبالتالي تؤمّن هتش هذه المناطق لحين الانتهاء من مناطق أخرى، يضاف إلى ذلك عمل الماكينة الإعلامية لها على تجييش "المهاجرين" من الفصائل الأخرى[٩] لدفعهم نحو المشاركة معها في قتال "الجبهة"، وهو ما أدى لانخراط "الحزب التركستاني" في القتال إلى جانبها، والذي كان أحد أهم الأسباب التي رجحت كفة هتش لاحقاً.

ومع مرور الأيام بدا أن كلا الطرفين غير قادر على حسم الأمور لصالحه، وأن المعارك الدائرة تشكل استنزافاً لكليهما، مما سمح بتجاوب أكبر مع جهود الصلح والهدنة التي قادها جهات عدة.

مواقف أهم الفصائل ومساعي الهدنة:

في بيان أعلنه في ٢٢ شباط/فبراير، حمّل فصيل "جيش الأحرار" أحد أبرز القوى المنشقة عن "هيئة تحرير الشام" المسؤولية في الاقتتال الدائر لهتش نتيجة رفض الأخيرة النزول أمام محكمة شرعية، كما دعا الفصيل قادة "الحزب التركستاني" لعدم الخوض في الصراع الدائر[١٠]، في الوقت الذي سرت فيه أنباء عن أوامر لعناصر "الأحرار" بنصب حواجز في عدة مناطق، ومنع تقدم عناصر هتش في تلك المناطق، في الوقت الذي أعلنت فيه عدة كتائب انشقاقها عن هتش وانضمامها لفصيل "جيش الأحرار" نفسه.

---

[٧] "مظاهرات شعبية في إدلب تطالب بطرد النصرة من المدينة"، أخبار الآن، ١،٣،٢٠١٨، https://goo.gl/ehftb6 .
[٨] المرجع السابق.
[٩] المرجع السابق.
[١٠] يمكن الاطلاع على البيان من موقع الفصيل على تويتر، https://twitter.com/jishalahrar .

أما "فيلق الشام" أحد أبرز القوى الفاعلة في الشمال، وبعد دعوات وُجهت له للمشاركة من قبل طرفي القتال، أصدر بياناً في ٢٥ من شباط/فبراير أعلن فيه التزام الحياد من القتال الدائر، مبرراً ذلك بأن الحالة الميدانية وخصوصاً ما تتعرض له الغوطة تقتضي توحيد الصفوف لمواجهة النظام[١١].

وبعد عدة محاولات للوساطة بين أطراف القتال من قبل جهات عدة في المنطقة، سواء من فصائل أو شخصيات شرعية وقيادية أهمها مبادرة الشيخين "المحيسني والعلياني"، نجحت جهود فيلق الشام في الوصول إلى هدنة بين طرفي القتال، حيث أعلن المسؤول الشرعي في الفيلق (عمر حذيفة) عن توصلهم لاتفاق وقف إطلاق نار بين هيئة "تحرير الشام" وجبهة "تحرير سوريا" لمدة يومين قابلة للتمديد، مع وقف شامل لكل "المهاترات الإعلامية و العمليات العسكرية" من أجل التوصل لصيغة حل شاملة بين الفصائل ولمدة ٤٨ ساعة تبدأ من صباح الجمعة ٩ آذار/مارس وحتى صباح الأحد ١١ آذار/مارس[١٢].

وقد سعت الوساطة إلى تمديد الهدنة بعد انقضاء مدتها، لكن خلافات ماتزال قائمة حول وقف الهدنة بين طرفي القتال أعادت المواجهات مجدداً يوم الأحد ١١ آذار، حيث شنت "هيئة تحرير الشام" هجوماً على منطقة "بسطرون" في ريف حلب الغربي لتتوسع المواجهات من جديد على أكثر من جبهة.

ثانياً- التداعيات المحتملة والمآلات القادمة:

لا شك أن المواجهات الأخيرة ستترك أثرها ليس على الفصائل المشاركة فيها فحسب، بل على مستقبل ادلب والشمال ككل، وهنا تكمن أهمية ما جرى. وفي ظل تبلور متغيرات هامة عدة في تلك المناطق، فإن تلك المواجهات لن تنفصل عمّا حولها من أحداث لا من حيث الأسباب ولا من حيث النتائج.

حيث نشهد تجميع أنصار "القاعدة" لأنفسهم في تنظيم جديد تحت اسم "حراس الدين"، بالإضافة لاستمرار عملية "غصن الزيتون" وما قد ينتج عنها من سيناريوهات ستلقي بظلالها على الشمال السوري برمته[١٣]، حيث تقترب القوات التركية وفصائل الجيش الحر المشاركة معها من حصار مركز مدينة "عفرين" ووصل ريفي حلب الغربي والشمالي ببعضهما، بالإضافة لحالة التهديد الروسي المستمرة بعمل عسكري قادم في إدلب ومحيطها،

الاستنزاف والمستفيدون:

شكلت الأحداث الأخيرة تطورات غير مسبوقة، حيث يُعتبر تراجع "الهيئة" أمام ضربات الفصائل هو الأول من نوعه، وهو ما أدى لحالة انكسار في التنظيم وقيادته المتمثلة بـ "أبو محمد الجولاني"، ومن غير المتوقع منه تقبّل هذا النوع من الهزائم، ما دفعه للزج بكافة الأسلحة المتوفرة لديه بعد اتباعه لتكتيكات عسكرية بالانسحاب بأقل الخسائر بغاية تجميع القوى وإعادة الهجوم من جديد.

ويُنذر استمرار المعارك الحالية بمزيد من الاستنزاف للقوى المنخرطة فيها، وبالتالي مزيداً من التدهور في الإمكانيات المتوفرة في المناطق المحررة لصد أي هجمات متوقعة من قبل قوات النظام وحلفائه، والتي تعتبر أكبر المستفيدين من نتائج ما يجري.

---

[١١] يمكن الاطلاع على البيان من موقع الفيلق على تويتر، https://twitter.com/shamlegion?lang=ar.

[١٢] "هكذا تمكن فيلق الشام من فرض هدنة بين تحرير الشام وتحرير سوريا"، أورينت نيوز، ١٠،٠٣،٢٠١٨، https://goo.gl/qrJBpE .

[١٣] رغم التوقعات بطول الفترة التي تحتاجها القوات التركية للسيطرة على مركز عفرين، فإن سقوط المدينة هو مسألة وقت والذي سينتهي إما بعملية انسحاب للوحدات الكردية بتنسيق طرف دولي، أو بالقضاء على تلك الوحدات في حال تحصنت ضمن المدينة لفترة طويلة، ليُفتح الباب بالتالي على ما بعد عفرين والذي يندرج بين التوجه التركي نحو منبج بالتنسيق مع الولايات المتحدة أو الوقوف على ما تم تحقيقه في عفرين دون عمليات عسكرية تليها مع بذل جهود تنموية على غرار مناطق درع الفرات في انتظار تبلور ظروف ملائمة، أو الانخراط بشكل أكبر في رسم مستقبل ادلب بما في ذلك تعزيز الوجود العسكري واستثمار نتائج عملية غصن الزيتون.

أما تركيا فتراقب ما يجري بحذر وتسعى لعدم تشتيت جهودها في عفرين في الوقت الحالي، وبكل الأحوال تبدو نتائج الاقتتال الدائر إيجابية بنسبة لأنقرة في إضعاف "النصرة" التي تشكل معضلة حقيقية في ظل مطالب دولية متكررة لأنقرة بإنهاء هذا الملف، ولن تتدخل بالتالي في المشهد الحاصل.

من جهة أخرى ورغم احتفاظ تركيا بعلاقات جيدة مع الفصائل الثورية في الطرف الآخر لكن أنقرة لن تمانع في إضعافها هي الأخرى في سبيل رفع قدرات فصائل أخرى تبدو أقرب لها وهي التي تشاركها العمل في عفرين حالياً، والتي شهدت انضمام عدد من الفصائل إثر الاقتتال الدائر، والعمل بالتالي على تقوية نفوذها في إدلب تمهيداً للترتيبات المستقبلية التي قد تلي عملية "غصن الزيتون".

محلياً فإن أطراف عدة ترى في الصراع الدائر فرصة لتحقيق المكاسب والحفاظ على القوة وإضعاف الخصوم، فبالإضافة لظهور تنظيم "حراس الدين"[١٤] الموالي للقاعدة والذي سيتحرك لينجز مشروعه في المنطقة بلا أدنى شك، فإن ثمة استفادة واضحة لدى فصائل أخرى من الصراع كـ"جيش الأحرار" و"فيلق الشام"، اللذان شهدا انضمام فصائل عدة صغيرة لهما في الأيام الماضية، وابتعدا عن استنزاف قواهما في انتظار تبلور المشهد أكثر.

الآثار الاجتماعية:

تبدو النتائج اجتماعياً خطيرة هي الأخرى، حيث أن الأهداف الفصائلية للقتال الدائر–كما يمكن فهمها من تصريحات متعددة تقدم المصالح الفصائلية- قد لا تتناسب مع الخسائر في النسيج الاجتماعي السوري مع احتمالية امتداد الصراع الحالي لصراعات مناطقية لفترة طويلة الأمد، وهذا ما قد يترك آثاراً اجتماعية يصعب تجاوزها مستقبلاً.

فالكثير من الفصائل وخصوصاً الصغيرة منها، تعمل ضمن قطاعات جغرافية معينة على مستوى قرى أو بلدات وتتكون بشكل رئيسي من أبناء تلك المناطق، وتندرج تلك الفصائل ضمن هياكل تنظيمية أكبر مثل "الهيئة" و "الجبهة" طرفي الاقتتال الحالي، ما يخلق بالتالي خصومات ويفتح باب الانقسامات القروية والمناطقية ضمن المحافظة نفسها، والتي تتميز بحالة من التجانس الديني والاجتماعي وامتداد لعلاقات القرابة والمصاهرة بالإضافة للامتداد العائلي والعشائري.

أما فكرياً فقد تصاعدت الخلافات ضمن البيت الواحد لعوائل محافظة إدلب، ليتوزع أفراد الأسرة والأقارب بين الأطراف المتنازعة، وقد تبادرت أسئلة إلى أذهان المدنيين في إدلب، قياسًا على حوادث واقعية جرت في المحافظة، ومن بينها "هل يمكن أن يقتل الأخ أخاه إن كان في فصيل الخصم"، وسط استمرار الاقتتال المحلي والدور الخطير الذي يلعبه القادة والشرعيون في التحريض على قتل أفراد الطرف الآخر[١٥]، ووقوع العديد من حالات الإعدام الميداني والتصفية، ما يؤدي لتغذية مشاعر الانتقام والثأر.

المآلات القادمة وملامح المرحلة المقبلة:

مع قراءة المشهد في الشمال بكليته والذي يشكل الصراع بين "النصرة" و "جبهة تحرير سوريا" أحد عناصره، يمكن وضع عدد من المحددات التي تشكل أبرز ملامح المرحلة المقبلة:

---

[١٤] في نهاية الشهر الماضي، وبالتزامن مع الاقتتال الداخلي في ادلب، أُعلن عن تشكيل هذا التنظيم والذي ضم أبرز التشكيلات التي انشقت عن هيئة تحرير الشام في الفترة الماضية، وأهمها "جيش البادية" و "جيش الملاحم"، وذلك إثر تصاعد الخلاف بين الظواهري والجولاني.

[١٥] انظر" اقتتال الفصائل يخترق العائلة الواحدة في إدلب"، عنب بلدي، ٤،٣،٢٠١٨، https://www.enabbaladi.net/archives/210715 .

صراع متجدد:

إن الصراع الحالي في إدلب بين "هيئة تحرير الشام" و "جبهة تحرير سوريا" هو صراع وجود يسعى فيه كل طرف إلى إنهاء الآخر، ومع تمايز الأهداف البعيدة بينهما بالنسبة للوضع السياسي ورؤية سوريا المستقبل، فإن ما جرى ليس سوى جولة من جولات أخرى قادمة في صراع لن ينتهي ما دامت أسبابه قائمة، وسنشهد مزيداً من الاستنزاف لكافة الأطراف، وتوسعاً في شكل الصراع ودمويته.

وبالاطلاع على إمكانيات ومقدرات الطرفين والتي ترسخت خلال السنوات القليلة الماضية، سواء من رصيد شعبي أو قوة عسكرية أو تحالفات، فإنه من المؤكد استحالة قضاء أي طرف على الآخر في الفترة القصيرة القادمة، ما لم يؤثر عامل خارجي يغير من موازين القوى على الأرض.

كما أن تقدم الفصائل في وجه "النصرة" خارج المناطق السيادية كمركز محافظة ادلب ومعبر باب الهوى لن يفضي إلى إضعاف الأخيرة عملياً، وسيبقى مجرد لعب على الهوامش ولن يؤثر على مستقبل المنطقة، الذي سيتم رسمه وفقاً لتفاهمات دولية في الغالب. من جهتها "هيئة تحرير الشام"، يصعب عليها إنهاء الطرف الآخر ما دامت حالة الاتحاد بين الفصائل الكبرى قائمة ضمن ما يسمى "جبهة تحرير سوريا".

عودة "تنظيم القاعدة":

لا شك أن ظهور تنظيم "حراس الدين" المنتمي لتنظيم القاعدة واحتمال نشاطه في المستقبل القريب سيزيد من تعقيدات المنطقة، باعتبار أنه مختلف مع الفصائل ومع "النصرة" نفسها، وهو ما قد يفتح الباب لصراعات داخلية جديدة، وتدخلات دولية متزايدة، ويعطي ذرائع أكبر للنظام وحليفيه روسيا وإيران لشن عملية عسكرية في ادلب.

التنظيم الذي تبلورت ملامحه نهاية كانون الثاني/يناير الماضي بعد جملة من الأحداث والمتغيرات عصفت بالعلاقة بين "الظواهري" و "الجولاني" والتي تبعها حدوث انشقاقات وخلافات عميقة ضمن "هيئة تحرير الشام" انتهت بتجميع أنصار "القاعدة" لأنفسهم ضمن التنظيم الجديد بقيادة " أبوهمام الشامي" حسب ما توارد من أنباء[١٦].

وكان "حراس الدين" قد أصدر بيانه الأول بعد أيام من بدء الاقتتال بين "الهيئة" و "الجبهة" دعا فيه "الأطراف المتقاتلة لوقف القتال والتفرغ لقتال النظام وتوحيد الجهود للتخفيف عن الغوطة"[١٧].

ويواجه التنظيم الجديد جملة من التحديات في تحقيق مشروعه المدعوم من القيادة الأم المتمثلة "بالظواهري"[١٨]، وأهمها افتقاده للسلاح الثقيل، بالإضافة لحالة الرفض الشعبي لوجوده، فضلاً عن اختلافه مع باقي التنظيمات والفصائل في مناطق ادلب بما فيها هتش، ما يجعله أحد المستفيدين من القتال الدائر بين الفصائل.

من جهة أخرى يشكل ظهور التنظيم الجديد حالة قلق متزايد لدى قوى الثورة والمجتمع في إدلب، والخوف من تمدد التنظيم وسيطرته القسرية على البيئة المحلية في مناطق وجوده، وقضائه على الحالة المدنية، ما سيؤدي إلى تدهور متزايد في الحالة الإنسانية والخدمية، وفقاً

---

[١٦] للمزيد انظر : "حراس الدين"، بوابة الحركات الاسلامية ، ٣,٣,٢٠١٨، http://www.islamist-movements.com/42253 .

[١٧] "تنظيم حراس الدين وأول بيان يدعو لوقف الاقتتال"، شبكة شام، ٢٧,٢,٢٠١٨، https://goo.gl/82rb5w .

[١٨] كان زعيم تنظيم القاعدة "أيمن الظواهري" قد ألمح في تسجيل صوتي سابق أن تنظيم القاعدة يتواصل مع مريديه في سوريا ودعا من يريد إلى التواصل معه أيضاً، كما قال: «ندعو لتوحيد الفصائل، وتشكيل حكومة إسلامية راشدة، فأخوة الإسلام أقوى من كل التنظيمات الزائلة، https://goo.gl/9fShMR .

لتجارب "القاعدة" السابقة في مناطق أخرى، وذلك في وقت تمر فيه الثورة بأسوأ مراحلها نتيجة الهزائم المتزايدة أمام النظام وحلفائه، وخسارة المزيد من المناطق، وتعمق المأساة الإنسانية.

لكن يبدو الخطر الأكبر من كون وجود "القاعدة" سيوجه أنظار المجتمع الدولي نحو "إدلب"، وهو ما تنذر به قادم الأيام مع تبلور أكثر لملامح هذا التنظيم، ويفتح بالتالي الباب واسعاً أمام عملية عسكرية روسية في إدلب بذريعة وجود تنظيم "القاعدة" الأصل هذه المرة، فضلاً عن هجمات جوية قد تنفذها قوات "التحالف الدولي" لنفس الذريعة، ما سيؤدي لمزيد من المآسي والضحايا، ويُفقد أي معنى لوجود المناطق المحررة ولقوى الثورة أو فصائل المعارضة.

طموحات الخصوم:

إن لدى النظام وحلفائه استراتيجية واضحة بالعمل للسيطرة على كافة الأراضي السورية بما فيها إدلب وما حولها، بغض النظر عن الطرف أو الفصيل المهيمن عليها، وتظهر التصريحات الروسية والتوجهات الميدانية أن إدلب على الأجندة الروسية عاجلاً أم آجلاً. وتعمل قوات النظام مع حلفائها على تحييد بعض المناطق بشكل مؤقت والهجوم على مناطق أخرى، ما يجعل كل الأراضي الخارجة عن سيطرتها في سوريا محل عمليات محتملة قادمة، وينسحب ذلك على ادلب.

لكن ذلك يتعارض مع مصالح تركيا التي تتوسع ببطء في الشمال السوري، وستسعى لاستثمار نتائج عمليتها في عفرين، فرغم محدودية الوجود التركي الحالي في ادلب ومحيطها، والذي جاء وفق نقاط مراقبة حددتها" اتفاقيات خفض التصعيد"، إلا أن هناك مصلحة تركية في توسيع هذا النفوذ مستقبلاً بعد عملية "غصن الزيتون" والحديث عن إعادة الإعمار، دون وجود سقف زمني واضح للتدخل التركي في سوريا والذي سيرتبط بترتيبات الحل النهائي، وذلك دون إغفال العوائق والتحديات التي قد تواجه مثل هذا الدور محليا ودولياً.

الحالة السياسية:

بغض النظر عن نتيجة الصراع الحالي فإن تغيّراً لن يطرأ على الحالة السياسية للمشهد السوري، وكذلك في مستقبل العمليات التفاوضية، والتي فقدت معناها نهائياً مع تراجع فصائل الثورة وخصوصاً في الغوطة تحت آلة النظام وحلفائه العسكرية، مع إمكانية بناء تفاهمات جديدة بين الأطراف الضامنة "تركيا - روسيا - إيران" تحدد بشكل أوضح مناطق النفوذ في الشمال السوري على ضوء التقدم الحاصل في عملية "غصن الزيتون".

خاتمة وتوصيات:

أمام حالة الإحباط المتكررة والتراجعات المتتالية لفصائل الثورة والمعارضة، وفي ظل انعدام الثقة بين الفصائل والمجتمع، وفي الوقت الذي تشهد فيه الثورة أكبر انكساراتها بالحملة الهمجية على الغوطة الشرقية وما نتج عنها من ضحايا، وما قد تفضي إليه من أزمة كبرى، تتضاءل الفرص بتحقيق مستقبل يتناسب بالحد الأدنى مع ما تم تقديمه من تضحيات.

لكن يبقى الأمل باستعادة الشعب لزمام المبادرة في المناطق المحررة، حيث كان للتحركات الشعبية ضد "هيئة تحرير الشام" دوراً فاعلاً في تراجعها في الأيام الأخيرة، ومن شأن هذا الحراك الشعبي أن يقف في وجه أي قوة تريد فرض نفسها مستقبلاً، لذا يجب البناء عليه وتشجيعه وإحياء الحالة المدنية وبث روح الثقة فيها.

وفي ظل تعقيدات الحالة السياسية والعسكرية يبقى الخيار الأفضل للتعامل مع هذه التطورات التسريع في إنشاء أو إيجاد بنى حكم محلي في المراكز البشرية والمدن والبلدات، يكون فيها عودة للحياة المدنية وفرض وحدة العمل الإداري والعسكري ضمن هيكل موحد، يتم فيها إعطاء أهالي المناطق حق إدارة شؤونهم سواء ضمن إطار لا مركزي إداري أو سياسي، يشكل حالة حماية ذاتية في لبّ الفوضى التي تعصف بالأراضي السورية وانعدام أفق الحل السياسي.

ومن جانب آخر يجب على الفصائل ولا سيما تلك التي تتبنى خيارات الثورة، الابتعاد أولاً عن ممارسة دور الوصي على الشعب وخياراته، والانحياز مجدداً لمطالب الناس، والابتعاد عن الأهداف الفصائلية الضيقة، وممارسة شفافية أكبر أمام الرأي العام، وأن تدرك أن تحصيل دعم شعبي حقيقي يتم عبر وحدة الصف الثوري وبناء خطاب وطني جامع، وهو أحد أهم العوامل التي قد تساعدها في صراعها الحالي مع "النصرة" أو مع غيرها من التنظيمات المتشددة التي كانت ولا تزال أحد أبرز المعوقات في تحقيق الشعب لحريته.